جنكيز تشاندار*

السياسة التركية "صفر مشاكل مع الجوار" و"لا جوار من دون مشاكل"**

ينطلق جنكيز تشاندار من مناسبة عقد مؤتمر "حزب العدالة والتنمية" الأخير، ليقول إنه جاء في أسوأ الأوقات بالنسبة إلى استراتيجيا الحزب المعروفة بـ: "صفر مشاكل مع الجوار"، والتي تتعرض لانتقادات واسعة بعدما انكشف عقمها، وخصوصاً مع التطورات في سورية، "إذ لم تخسر تركيا روابطها مع سورية بشار الأسد فحسب، بل ظهرت أيضاً احتكاكات بينها وبين جارتَيها النافذتين إيران وروسيا، كما دخلت العلاقات مع حكومة المالكي في بغداد مرحلة من التشنج والعداء بعدما كانت صداقة مميزة تجمع بين البلدَين."

ويعرض تشاندار مجموعة من المواقف والتحليلات لكتّاب وسياسيين غربيين متابعين و / أو مهتمين بما يجري في تركيا، ليخلص إلى أن "الخيار الذي اتخذته تركيا في التعامل مع التطورات السورية هو نذير 'انهيار سياسة صفر مشاكل'، إلاّ إنه ينطوي أيضاً على شيء من الحكمة كونه يشكّل استثماراً كبيراً في مستقبل المنطقة. فواقع الحال هو أن سياسة 'صفر مشاكل مع الجوار' ما كانت لتستمر مع تبدّل الوضع القائم الذي نشأ بعد الحرب الباردة وبعد حربَي العراق"، وإلى أن "سياسة 'صفر مشاكل مع الجوار' لم تكن أكثر من مجرد شعار رنّان لدخول تركيا من جديد إلى المنطقة، من أجل إعادة إحياء العثمانية الجديدة بشكل من الأشكال."

في اليوم الأخير من أيلول / سبتمبر ٢٠١٢، وقف زعيم حركة "حماس"، خالد مشعل، أمام رجب طيب أردوغان ومئات المندوبين من "حزب العدالة والتنمية" الذين بدت عليهم علامات الابتهاج الشديد، وراح يغدق المديح والثناء على رئيس الحكومة التركية، حتى إنه توجّه إلى الشعب التركي بالقول: "يمكنكم أن تفتخروا به. صدّقوني، بدأ هذا النجاح يتوسّع إلى العالم العربي. يبدو أنه معدٍ. والحمد لله على هذه العدوى." ثم خاطب رجب طيب أردوغان مباشرة: "سيد أردوغان، في ظل قيادتك، أظهرت تركيا ذات القيم المعاصرة للعالم بأسره الوجه المشرق للإسلام. أرى الخطوات التي تقوم بها في هذا العالم. لن تنسى البشرية دعمك لفلسطين والصومال

* كاتب وصحافي تركي.
** **ترجمتها عن الإنجليزية**: نسرين ناضر.

وميانمار وسورية... بالتأكيد، الناس في تركيا شركاء في هذه النجاحات الكبرى." وبلغ خطابه الشديد الحماسة ذروته عندما قال: "أخي أردوغان، أنت قائد العالم الإسلامي."

لعل الأهم من خطاب مشعل الذي طغت عليه المشاعر، الكلمة التي ألقاها كل من الرئيس المصري محمد مرسي، ورئيس حكومة إقليم كردستان في العراق مسعود البرزاني. الأول هو الزهرة الأكثر تفتّحاً في الربيع العربي التي أنتجها برلمان منتخَب بطريقة ديمقراطية إلى حد ما، وهو رئيس لأول مرة، والثاني هو الجار المباشر لتركيا. أو يمكن أيضاً توصيف الأمور على النحو الآتي: مصر هي مصر، وكردستان العراق هو الجار الأهم لتركيا بما أن المسألة الكردية هي القضية الأساسية التي تتسبب بالهشاشة في تركيا ولا تزال من دون حل، فضلاً عن أن العناصر المسلحة في التمرد الكردي تتمركز هناك.

لقد حمل الخطاب المتّزن الذي ألقاه الرئيس مرسي بعض المؤشرات إلى بوادر شراكة استراتيجية ناشئة بين مصر وتركيا، فقد كتب الخبير المخضرم بالسياسة الخارجية التركية، سامي كوهن، في صحيفة "ميليت" التركية: إننا نستشفّ من مضمون خطاب مرسي في مؤتمر حزب "العدالة والتنمية" البوادر الأولى لمحور جديد في المنطقة.

في الواقع، كثيراً ما حلم وزير الخارجية التركي أحمد داود أوغلو بقيام محور استراتيجي مصري ـ تركي، فهذا الأكاديمي السابق الذي اشتُهر بكتابه المرجعي: "العمق الاستراتيجي"، هو العقل الاستراتيجي الذي يقف خلف الانفتاح التركي الجديد والطَّموح على العالم العربي والإسلامي.

لكن مؤتمر "حزب العدالة والتنمية" عُقِد، بمعنى من المعاني، في أسوأ الأوقات بالنسبة إلى أحمد داود أوغلو، فقد كانت حكمته الاستراتيجية تتعرض لهجوم لا هوادة فيه على خلفية التطورات في سورية، إذ لم تخسر تركيا روابطها مع سورية بشار الأسد فحسب، بل ظهرت أيضاً احتكاكات بينها وبين جارتَيها النافذتين إيران وروسيا، كما أن العلاقات مع حكومة المالكي في بغداد دخلت مرحلة من التشنج والعداء بعدما كانت صداقة مميزة تجمع بين البلدَين.

لقد وضع داود أوغلو بنفسه شعار السياسة الخارجية الجديدة لتركيا "صفر مشاكل مع دول الجوار"، والتي أُعطيت فيها الأولوية للعلاقات مع الشرق الأوسط. أمّا الحالة الراهنة للعلاقات بين تركيا وجيرانها التي رسمها داود أوغلو في مؤلفاته، وتبعه كثرٌ سواه، فتنطبق عليها مقولة "لا جوار من دون مشاكل".

لدى عقد مؤتمر "حزب العدالة والتنمية" الذي كان الهدف منه تقديم عرض كبير يظهر أردوغان من خلاله زعيماً للشرق الأوسط والعالم الإسلامي بمشاركة عدد كبير من القادة من آسيا الوسطى إلى شمال إفريقيا (وبينهم راشد الغنوشي)، كان شعار داود أوغلو بشأن سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" بدأ يتعرض للهجوم أو الانتقادات التهكمية. وكان سؤال "لماذا فشلت سياسة صفر مشاكل مع الجوار" قد طُرح على الملأ.

في الأسابيع الأخيرة، نُشرت في الصحافة، ولا سيما الغربية منها، مجموعة كبيرة من المقالات والتحليلات بأقلام كتّاب يتمتعون بالصدقية، وشكّكت جميعها في صحة سياسة "صفر مشاكل مع الجوار"، وذكرت عدداً من الأسباب التي تقف خلف فشلها. فقد كتب مورتون أبراموفيتز، وهو سفير أميركي سابق لدى تركيا وخبير مرموق بالشؤون التركية في مراكز الدراسات والأبحاث في واشنطن، مقالة في مجلة "ذي ناشونال إنترست" في ٢٠ أيلول/ سبتمبر بعنوان: "موقف تركيا الهش". وكتب المؤرخ الأميركي المعروف

والاختصاصي بالعلوم السياسية، والتر راسل ميد، مقالة مهمة أيضاً في مجلة "ذي أميركان إنترست" في ١٦ أيلول / سبتمبر بعنوان: "تركيا: لا تزال صغيرة جداً ومهددة جداً". والمقالة الثالثة التي لا بد من التوقف عندها هي لمراسل صحيفة "فايننشال تايمز" في تركيا، دانيال دومبي، الذي نشر في ٢٤ أيلول / سبتمبر تحت عنوان: "تركيا: عبء أنقرة غير المتوقّع"، أن "معارضة الأسد ولّدت مركز ثقل صاعداً يختلف أكثر فأكثر في الرأي مع الجيران والحلفاء العالميين." وفي اليوم التالي، ٢٥ أيلول / سبتمبر، نشر موقع "المونيتور" في بيروت تحليلاً بعنوان: "هل تخسر تركيا العراق؟" بقلم دنيز ناتالي التي توقفت هي أيضاً عند إخفاقات سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" التي يطبّقها النظام التركي الحالي.

وقارن والتر راسل ميد، أردوغان في مقالته، بـ "وودرو ويلسون"، مؤكداً أن "حلمه بقيادة مسيرة الديمقراطية الإسلامية في مختلف أنحاء الشرق الأوسط يبدو مشوشاً ومنهوك القوى، فالقيادة التركية ودبلوماسيتها لم تنجحا لا في ليبيا ولا في سورية ولا في مصر، والوضع في سورية كارثي بكل معنى الكلمة ويهدد الاستقرار داخل تركيا ذاتها."

وإذ شدّد ميد على أن "الوضع الدولي يبدو صعباً"، أضاف أن "العلاقات مع الجيران سيئة، فإيران وروسيا وسورية هي الآن أكثر عدائية حيال تركيا ممّا كانت عليه قبل عامَين... وقبل أي شيء، فإن ما تريده تركيا في منطقتها هو الهدوء. فهي لا تريد الفوضى التي تؤدي إلى تدفّق اللاجئين، وتهريب الأسلحة، وتتيح للأكراد فرصة إنشاء حكومات إقليمية تتمتع باستقلال ذاتي وبناء شبكات توريد ومراكز تدريب، وهي تريد أن تتمكن من ممارسة التجارة، وأن تستنبط طرقاً للإفادة من روابطها الثقافية في المنطقة واستخدامها لبناء وجود اقتصادي قوي. لكن ليس هناك مؤشرات توحي بأن الهدوء سيستتبّ في الشرق الأوسط. فالصراع السنّي ـ الشيعي يُحدث تشنجاً في السياسات داخل بلاد المنطقة، ويتسبّب بالاستقطاب بين اللاعبين الكبار مثل السعودية وإيران؛ لا بل أكثر من ذلك، يجتذب القوى الخارجية، ولا سيما روسيا التي بدأت تنظر بتوجّس وريبة شديدَين إلى 'الصعود السنّي'. تريد تركيا حلولاً لهذه المشاكل، وعليها تأدية دور مهم في هذا الإطار، لكنها لا تستطيع أن تقوم بما يكفي بمفردها. فكما كانت الحال خلال الحقبة العثمانية، فإنه يصعب العثور على حلفاء جيّدين، كما أنهم يفرضون دائماً ثمناً معيناً."

والتر راسل ميد اختصاصي لامع بالعلوم السياسية، ومن أفضل المؤرخين في الولايات المتحدة في الوقت الحالي، لكن لا يُعرَف عنه أنه من المتمرسين بالشؤون التركية. أمّا مورتون أبراموفيتز فيُشتهر بخبرته بالشأن التركي، ومضمون مقالته "موقف تركيا الهش" يتعارض مع ما ورد في كلمة خالد مشعل في مؤتمر "حزب العدالة والتنمية". ففي نظره "ليست مشاكل تركيا نسخة عن مصائب أوروبا الاقتصادية، وإنما هي نابعة من الضياع الشديد في سياساتها الشرق الأوسطية التي تتبجّح بها كثيراً، ومن عجزها عن إيجاد حل للمسألة الكردية التي مضى عليها قرن من الزمن. وتزداد إدارة هذه التعقيدات صعوبة بسبب ما يطمح إليه رئيس الحكومة رجب طيب أردوغان من تغيير النظام السياسي التركي وتحويله إلى نظام يطغى عليه رئيس أكثر نفوذاً، علماً بأنه يأمل بتولّي هذا المنصب بعد تنظيم انتخابات في سنة ٢٠١٤. ولا يزال أردوغان الشخصية الأساسية في السياسة التركية، لكن مشاكله في ازدياد، وكذلك الانتقادات الموجهة إليه."

ويتابع أبراموفيتز تحليله قائلاً: "تغرق

تركيا أكثر فأكثر في وحول الصعوبات السورية، فانخراطها الشديد في المجهود الآيل إلى إسقاط الأسد لا يلقى شعبية، كما أنه لم يتكلل بالنجاح حتى الآن. لقد سعى الأتراك، بما في ذلك الجيش التركي، للتدخل في الجهود العسكرية في البلاد العربية. وعلى الرغم من المساعي المثيرة للإعجاب التي بذلها أردوغان في البداية لمعالجة الأزمة الإنسانية، فإنه يجد الآن صعوبة في التعامل مع زيادة هائلة وغير متوقعة في أعداد اللاجئين التي تجاوزت كثيراً ١٠٠,٠٠٠، وهي لا تزال في ازدياد. وتشير التقارير إلى أن المبلغ الذي أُنفق حتى الآن على هؤلاء اللاجئين تجاوز أيضاً ٣٠٠ مليون دولار، على الرغم من أنه لم يُدرَج في الميزانية. والحكومة التي رفضت المساعدات الدولية، ولا سيما بهدف تقديم الدعم سراً إلى المعارضة السورية داخل المخيمات، تسعى جاهدة للحصول على المساهمات الخارجية، ولنقل اللاجئين من المناطق الحساسة مثل محافظة هاتاي. لقد كانت سورية محور الدبلوماسية الشرق الأوسطية في تركيا، وكان لأردوغان علاقة ودّية دامت طويلاً مع الأسد، فقد حاول في مرحلة معينة التوسط لتوقيع اتفاق سلام بين إسرائيل وسورية، لكن الربيع العربي قلب مسعاه السوري رأساً على عقب. في البداية، حاول أردوغان جاهداً حمل الأسد على قبول التغيير السياسي، لكنه فشل، فتحوّل الأخير عدواً لدوداً له يُصمّم أردوغان على إسقاطه."

في الواقع، يبدو أبراموفيتز في أحد المقاطع كأنه رسّام يستخدم فرشاته للقيام بخبطة معلّم، فيعرض ويوجز لماذا سقطت بكل وضوح سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" التي روّجت لها تركيا كثيراً.

وفي السياق نفسه، من المفيد التوقف عند تحليل غربي من داخل تركيا. يكتب دانيال دومبي، مراسل صحيفة "فايننشال تايمز" المقيم في تركيا، عن التبدل في حظوظ البلد الذي يستضيفه على أراضيه، وتراجعه في منطقة الشرق الأوسط: "... إنه أمر مؤلم لتركيا أن تجد نفسها في وضع حرج ودقيق بسبب رفعها لواء الحملة ضد الأسد. إنه تراجع صعب بالنسبة إلى بلد حلّقت طموحاته عالياً في الأعوام الأخيرة. لقد وجدت تركيا نفسها في حالة خصام مع جيرانها، وعلى خلاف مع حلفائها، وتحاصرها تحديات كبيرة على أراضيها. وليست محنتها تجسيداً لعدم الاستقرار الذي تصدّره سورية وصعود المذهبية فحسب، بل تكشف أيضاً كيف أن الهشاشات الإقليمية والمحلية قادرة حتى على أن تلقي بثقلها على قوة ديناميكية وصاعدة مثل تركيا."

يصف دومبي التحديات التي تواجهها تركيا عبر إجراء مقارنة مع المرحلة الماضية عندما كان نجم تركيا في صعود بفضل سياستها الإقليمية: "قبل ثلاثة أو أربعة أعوام، كانت نقطة القوة التي تعتدّ بها تركيا في سياستها الخارجية هي العلاقات الجيدة مع البلاد المجاورة. فقد كانت مزهوّة بصورة خاصة بصلاتها مع سورية ورئيسها الأسد، لكن المسؤولين اضطُروا إلى التوقف عن التباهي بهذه الروابط. فالعلاقات مع الجيران في الجنوب والشرق، وتحديداً مع سورية، وكذلك إيران الداعمة الأساسية لدمشق، وحكومة العراق التي أعلنت هذه السنة أن تركيا 'دولة معادية'، هي حالياً مسمومة. وتركيا غاضبة جداً أيضاً من حلفائها القدامى في الغرب، ولا سيما الولايات المتحدة، الذين لم يدعموا إنشاء منطقة عازلة في سورية خلال نقاش مشحون جداً في حلف شمال الأطلسي (الناتو) والأمم المتحدة."

لقد أوضح أردوغان وداود أوغلو اللذان يقرران السياسة التركية في الموضوع السوري، أكثر من مرة، أنهما لا يريدان أن تؤدي الأزمة السورية إلى نزاع تركي ـ سوري. فتركيا لم

ترد قط التصرف بمفردها في سورية، حتى لو كانت تؤيد إقامة مناطق عازلة، وأُخرى محظورة أمام الطيران. لقد سعت دائماً للحصول على غطاء عربي لتحركاتها، ولذلك طلبت من الجامعة العربية الانخراط أكثر في الشأن السوري. وفي حين عارضت شنّ عملية عسكرية بقيادة الغرب أو الولايات المتحدة، ولم تشجّع على قيام "الناتو" بتنفيذ عملية عسكرية كما حدث في ليبيا، فإنها اعتبرت أن الولايات المتحدة لا تفعل ما يتوجب عليها لمواجهة النظام السوري وحلفائه الخارجيين.

ولا يريد أردوغان وداود أوغلو مطلقاً أن تُستخدم تركيا قاعدة أمامية للولايات المتحدة ضد سورية كما استُعملت باكستان في المواجهة مع أفغانستان. فما دام الرئيس أوباما يفضّل الانسحاب من النزاعات المطولة، مثل أفغانستان في ثمانينيات القرن الماضي، فإن تركيا التي تدهورت علاقاتها بجيرانها، أو على الأقل باتت علاقاتها بهم غير سهلة على الإطلاق، تخشى أن تُستخدم كما استُخدمت باكستان في المسألة الأفغانية، فقد كانت القاعدة الأمامية للمتمردين الأفغان، وبسبب ذلك واجهت ضغوطاً كبيرة لم تتعافَ منها قط.

لم ترد تركيا التي تتميز باقتصادها الحيوي الذي يسجّل نمواً ويتطور بسرعة، أن تظهر "أفغانستانات" أُخرى عند عتبة بابها. وقد كشف لي دبلوماسي تركي رفيع المستوى أن الامتعاض التركي من الحرب على العراق في سنة ٢٠٠٣ لم ينبع فقط من همّ أمني خوفاً من أن تؤدي تداعياتها إلى قيام دولة كردية مستقلة أو شبه مستقلة، بل أيضاً من المخاوف التركية من ظهور أفغانستان ثانية عند الحدود الجنوبية للبلد، الأمر الذي من شأنه أن يتسبب بزعزعة دائمة للاستقرار على الطرقات التجارية المهمة التي تربط تركيا بالخليج، ويهدد احتياط الهيدروكربون الأساسي في العالم أيضاً.

وتتجدد هذه المخاوف الآن مع غرق سورية في نزاع مذهبي وشبه حرب أهلية في ظل نظام برهن عن قدرة على الصمود حالت دون التمكن من إطاحته بسهولة وسرعة، خلافاً لما حدث في تونس ومصر، لكنه لم يعد يسيطر على الأرياف الواسعة، فما بالكم بالمناطق الوسطى في المدن الكبرى مثل دمشق، والمدينة الأكبر حلب التي تقع على مقربة من الحدود التركية؟

إن ذلك يعني أننا أمام حرب استنزاف طويلة وعدم استقرار خطر ستصدّرهما سورية إلى البلاد المجاورة لها، ولا سيما تركيا التي تعاني جرّاء المشكلة الكردية العالقة، والتي من شأنها أن تتأثر أكثر فأكثر بالمكاسب التي قد يحقّقها الأكراد السوريون من خلال قيام مناطق تتمتع باستقلال ذاتي بحكم الأمر الواقع على طول الحدود الطويلة بين البلدَين، والتي تمتد على مسافة ٩١١ كيلومتراً. ويشير هؤلاء الأكراد إلى أنه حتى لو سقط نظام البعث، فإنهم لن يخضعوا بعد الآن لدولة عربية سورية مركزية.

لقد أراد صانعو السياسات الأتراك الذين يعون جيداً هذه الصعوبات والتحديات، أن يرحل النظام السوري بأسرع وقت ممكن، لأنه كلما تمسّك بالسلطة، توسّع عدم الاستقرار أكثر فأكثر، وانتقلت عدواه إلى خارج سورية. وهكذا سعت المقاربة التركية التي تُنسَب إلى أردوغان، لجعل بشار الأسد يرحل مع زمرته الحاكمة، إنما مع الحفاظ على الدولة. وكان هذا، بمعنى من المعاني، الدرس الذي تعلّموه من المحنة العراقية. ففي العراق، تسبّبت إطاحة صدام حسين، فضلاً عن تفكيك الجيش والبعث، بكثير من الفوضى، وغرق البلد في حمامات من الدماء. بيد أن القادة الأتراك فشلوا على الأرجح في استنباط الأسباب الحقيقية من التاريخ الحديث، وهي أنه لا وجود لهيكليات ومؤسسات حديثة تقوم عليها الدولة، ففي الحقبة ما بعد العثمانية، أريد عمداً ألاّ تكون للدول مثل هذه

الهيكليات والمؤسسات. وهكذا، إذا بدأ انهيار الحاكم أو النخبة أو الزمرة الحاكمة، فإن الدولة تتداعى أيضاً، وهذا بالضبط ما يحدث في سورية، بينما تركيا عاجزة ولا تتمتع بالقوة الكافية لوقف مثل هذه العملية.

وينظر المحللون الغربيون إلى الوضع التركي في سياق النزاع الدموي في سورية على الشكل الآتي: لقد ولّدت معارضة الأسد خلافات مع جيرانها ومع حلفاء الأسد.

وفي هذا الإطار، سنتطرق إلى أحد الأسباب التي أدت إلى فشل السياسة الحكيمة التي انتهجتها تركيا تحت عنوان: "صفر مشاكل مع الجوار".

من الأخطاء التي ارتكبتها تركيا وأدت إلى فشل هذه السياسة، معارضة الأسد والوصول إلى حد تنظيم المعارضة السورية تحت مسمّى "المجلس الوطني السوري"، وإيوائها داخل تركيا.

فحتى قبل اعتماد سياسة "صفر مشاكل مع الجوار"، لم يكن لدى تركيا أي تقليد على الإطلاق باستضافة معارضين من أي بلد مجاور، بل إنها أحجمت دائماً عن دعمهم في مواجهة حكوماتهم. لقد اكتفت تركيا باستضافة أشخاص فقط، كما كانت الحال في قضية تروتسكي ضد ستالين، لكن حتى إقامة تروتسكي فيها كانت قصيرة.

فما هو عامل الاختلاف هذه المرة الذي دفع تركيا إلى الابتعاد عن سلوكها القديم، والمساعدة على تنظيم المعارضة السورية التي جلبت بدورها إلى تركيا خطر التورط في نزاع طويل ومرهق جداً، وهددت حتى مكانتها كقوة إقليمية صاعدة؟

قال دبلوماسي تركي رفيع المستوى في جلسة خاصة: "لم نرد ارتكاب الخطأ نفسه الذي اقترفناه في التعامل مع المعارضة العراقية. فقد رفضنا الاعتراف بها بحجة عدم التدخل في الشؤون الداخلية لبلد مجاور، أي العراق في ظل صدام، لكن المعارضة العراقية تشكلت على الرغم من تجاهلنا لها، وانخرطت مع واشنطن ولندن وباريس ودمشق وطهران بينما كنّا نتفرج. وإذا أردنا أن نمارس تأثيرنا في هذه المنطقة في المستقبل، وأن نكون مركز ثقل ونفوذ، فإنه لا يمكننا أن نكرر في سورية ما فعلناه في العراق. فنحن بلد ديمقراطي، وإذا كان السوريون يحتاجون إلى الحماية هنا ويريدون أن يجتمعوا، فإنه يمكنهم ذلك، ونحن نستطيع أن نؤمّن لهم التسهيلات. لقد قدّمنا الشيء نفسه إلى النظام، وكان في إمكاننا تأدية دور الوسيط لو اختار النظام ذلك، لكنه قرر أن يكون عنيفاً مع شعبه، وبما أننا اضطُررنا إلى اتخاذ موقف، فإننا وقفنا ببساطة إلى جانب الشعب."

ونقع على تحليل غربي رصين آخر بقلم جون ميرشايمر عن الموقف التركي من سورية الذي لم يُرضِ كثيرين، بما في ذلك الأتراك أنفسهم الغاضبون جداً من جرّهم إلى حرب من شأنها أن تطرح علامات استفهام كثيرة بشان مستقبل البلد. فقد تحدث ميرشايمر، الأستاذ في جامعة شيكاغو، والمعروف بكتابه المرجعي: "اللوبي الإسرائيلي"، مع صحافي تركي خلال وجوده في إستانبول في الأيام الأولى من تشرين الأول / أكتوبر قائلاً: "نواجه في الواقع عالماً فوضوياً جداً. عليّ أن أقول بوضوح إنه يستحيل على تركيا أن تقيم علاقات جيدة من دون مشاكل مع جميع جيرانها بصورة متزامنة، وخصوصاً أن هناك إمكاناً كبيراً جداً في أن تعاني متاعب خطرة مع إيران والعراق وسورية. فعلى سبيل المثال، إذا قررت تركيا إرسال جنود إلى سورية، فإنها ستواجه مشاكل خطرة مع إيران. ففي زمننا هذا، يصعب جداً إرساء توازن في العلاقات الدولية. ولذلك، أياً يكن الخيار الذي ستتخذه تركيا في السياسة الخارجية، فإنه سيكون هناك دائماً أفرقاء غير راضين."

هذا هو بالضبط حال مَن ينتقدون بشدة السياسة التركية في المسألة السورية، مذكّرين الرأي العام بأنها السبب في فشل سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" التي يُزعَم أنها كانت ناجحة.

ففي الحسابات التركية في السياسة الخارجية، ربما يكون الخيار الذي اتخذته تركيا في التعامل مع التطورات السورية هو نذير "انهيار سياسة صفر مشاكل"، إلاّ إنه ينطوي أيضاً على شيء من الحكمة كونه يشكّل استثماراً كبيراً في مستقبل المنطقة. فواقع الحال هو أن سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" ما كانت لتستمر مع تبدّل الوضع القائم الذي نشأ بعد الحرب الباردة، وبعد حربَي العراق.

وفي جميع الأحوال، فإن سياسة "صفر مشاكل مع الجوار" لم تكن أكثر من مجرد شعار رنّان لدخول تركيا من جديد إلى المنطقة، من أجل إعادة إحياء العثمانية الجديدة بشكل من الأشكال. لقد نمت تركيا في العقد الأخير لتحتل المرتبة السادسة عشرة بين أكبر الاقتصادات في العالم، والمرتبة السابعة في أوروبا في حجم التجارة، كما أنها تحتل المرتبة الثالثة أو حتى الثانية بين الاقتصادات الأكبر التي تشهد نمواً، إلى جانب الصين والهند، وتطمح إلى أن تكون بين أكبر عشر اقتصادات في العالم بحلول سنة ٢٠٢٣ التي تصادف الذكرى المئوية الأولى لتأسيس الجمهورية، مع العلم بأن الطلب على الطاقة الذي يسجّل ارتفاعاً متواصلاً، يتوقف على طموحاتها الاقتصادية.

ومع استعادة تركيا ثقتها بنفسها، فإن الزخم الاقتصادي، مقروناً بالاعتبارات الأيديولوجية إلى جانب درجة من الإرادوية، دفع بـ "حزب العدالة والتنمية" الحاكم وزعيمه رجب طيب أردوغان إلى الادعاء أنه يقع على عاتقهما قيادة العالم الإسلامي الذي يشكّل العالم العربي عموده الفقري. لقد كانت تركيا جاهزة لدخول تلك الحلبة الجيوسياسية التي أدارت ظهرها لها منذ تأسيس الجمهورية عقب انتهاء الحرب العالمية الأولى، وكانت جاهزة لشراء أي شيء وبيع أي شيء في المقابل، بما في ذلك نظرتها الاستشرافية في السياسة.

وقد اضطُرّت إلى الانخراط مع الحكومات والأنظمة القائمة من دون التشكيك في شرعيتها، ونجحت في ذلك، إلاّ إن نجاح تلك السياسة تحت الشعار الجذّاب "صفر مشاكل مع الجوار"، واستمراريتها، ارتبطا على الدوام بالوضع القائم الذي بُنيت تلك السياسة حوله.

مع حلول "الربيع العربي"، انتهى الوضع القائم في المنطقة، وسارعت تركيا إلى تأييد التغيير في شمال إفريقيا، وأعلن أردوغان ومعه "حزب العدالة والتنمية" أنهما عندما يصلان إلى مفترق التاريخ في الشرق الأوسط، ويُضطران إلى الاختيار بين التغيير والوضع القائم، فإنهما سيختاران التغيير. ولا بد هنا من أن نتذكر أن "حزب العدالة والتنمية" شكّل لدى انطلاقته تغييراً دراماتيكياً في المشهد السياسي التركي، ورفع تحدّياً في وجه الوضع القائم التركي، ولذلك ليس مفاجئاً أنهم اختاروا التغيير مع بداية "الربيع العربي".

لكن كي نلمس فعلاً نهاية سياسة "صفر مشاكل مع الجوار"، يجب أن تقترب رياح "الربيع العربي" أكثر من تركيا، أقرب من شمال إفريقيا، بحيث تصبح عند أبواب تركيا. وسورية هي بالضبط ذلك المكان الأقرب إلى تركيا الذي بلغه "الربيع العربي"، وقد أطلق نهاية سياسة "صفر مشاكل مع دول الجوار"، وجعل هذه النهاية واضحة للعيان، حتى إنه حوّلها إلى مأزق لتركيا، كما لجميع البلاد الأُخرى، والكيانات السياسية والحركات السياسية أو الأيديولوجية في المنطقة.

قد تفشل تركيا، إنما ليس بسبب ما يُسمى فشل سياسة "صفر مشاكل مع الجوار"، بل إن هذا الإخفاق قد يأتي جرّاء القيود القومية

التي تكبّل عمل النخب السياسية الجديدة في البلد، والتي لن تتمكن من تجاوز الصعوبات السياسية والاجتماعية المحلية، وستفشل بالتالي في تسوية المسألة الكردية، وهذه ستكون خسارة كبرى لتركيا.

لكن يمكن أن تنجح أيضاً. وهنا ربما يعوّل زعيم حركة "حماس"، خالد مشعل، على نجاحها، تماماً مثل الرئيس المصري محمد مرسي، وزعيم "حركة النهضة" التونسية راشد الغنوشي.

فعندما ينهار النظام السوري، لن يدور النقاش حول فشل سياسة "صفر مشاكل مع الجوار"، وإنما سيتمحور إلى حد ما حول الحكمة من وقوف تركيا في وجه النظام الديكتاتوري في سورية.

ومهما يكن الانتقال في سورية طويلاً وفوضوياً في مرحلة ما بعد البعث، فإن تركيا ستكون موجودة هناك، إنما ليس بصفتها الجارة الشمالية لسورية كما كانت طوال عقود. وسيكون المستقبل مختلفاً، وإذا نجحت تركيا في العبور إليه، فإنها ستفرض وجودها في المنطقة في موقع العرّابة لسورية الجديدة. ■

صدر حديثاً عن مؤسسة الدراسات الفلسطينية

النكبة

نكبة بيت المقدس والفردوس المفقود

١٩٤٧ – ١٩٤٩

(ثلاثة أجزاء)

تأليف: عارف العارف

إعداد وتقديم: وليد الخالدي

١٥٥٨ صفحة ٦٠ دولاراً